
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

قيسارية مراكش الموحدية

للأستاذ محمد رابطة الدين
كلية الآداب ـ مراكش

الإطـار البيبليوغرافي :

من بين الإنجـازات المعمارية المتميـزة التي أقامهـا الموحدون بمـراكش تأميـم لوحدة تجارية ضخمـة عرفت باسـم القيسارية، وذلك كجـزء من معمار اقتصادي يدخل في مكونات المدينة المخزنية التي شرع في بنائها منذ سنة 580هـ والمعروفة بالصالحة.(1)

إن المعلومات المعـروفة حاليا حـول هذه المنشأة التي ظهـرت مع أوائل الخلفاء الموحدين، واختفت مع نهاية هذا المخزن. تعد محدودة جدا، وهو ما ينعكس بوضوح في البيبليوغرافيا التي لها صلة بهذا الجانب.

فأقدم إشارة معـروفة جاءت من مصدر معاصر للتـأسيس وهو كتاب «الاستبصار»(2) الذي حدد بدقة تاريخ بداية استخدامها، واهتمام المنصور الموحدي بإنجاحها، ووظيفتها في مورفولـوجيا مراكش الجديدة خلال هذه الفترة أما ثـاني إشارة فقـد وردت عند ابن الـزيات وتفيـد بوجـود مهنة الـدلال بهـذه المنشـأة(3) بينمـا الإشـارة الوحيـدة التـي قـدمهـا ابن

1) مجهولان : كتاب الاستبصـار في عجائـب الأمصار. تحقيق زغلول عبد الحميـد ـ البيضاء 1985 ص 210 ـ محمد المنوني : ورقات عن الحضـارة المغربيـة في عصر بني مـرين ـ الـرباط 1979 ص : 300 ـ 304. ابن عذاري: البيان المغرب ـ قسم الموحديـن ـ تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة ـ البيضاء 1985 ص 174.

2) الاستبصار : 210.

3) ابن الزيـات التـادلي : التشـوف إلى رجـال التصـوف. تحقيق : أحمد التوفيـق ـ البيضاء 1984 ص : 393.

عـبد الملك وبشـكـل عـرضـي فـيسـتـفـاد منهـا في تحـديـد موقع هذه القيساريـة.(4)

ويبدو أن كتـاب البيان «يعتبر أوفـر هذه المصـادر على مستوى حجـم المعلومـات وطبيعتها أيضـا، حيـث انفرد بمعطيـات - ولـو أنها في شكل إشارات مقتضبـة - تهم الجانـب المعماري والاقتصادي والبشري، واهتمام المخزن بها، ثم الإحراق الأول والثاني لها.(5)

هناك ملاحظة تثار في هذا الباب وهي سكوت عبد الواحد المراكشي، وابن فضل الله العمري. حيث لم ترد ولو إشارة وحيدة عنها، سواء في «المعجب» أو «مسالك الأبصار» ومعلوم أن المراكشي كـان معاصرا لفترة التأسيس على الأقل، وعلى معرفة بالمدينة ومكوناتها، واهتم بإبراز جوانب من منجزات الموحدين البارزة في مـراكش بالخصوص مثل نصه الفـريد عن المارستان، هذا الأخير الذي لا تستبعد مجاورته للقيسارية.(6)

ودون شك فـإن صاحـب «المعجب» كان على رويـة من هـذه الملاحظة الواضحة على مؤلفه، وهو ما ينعكـس في التعليق التالي له يقول: «وفي طول أيامه [المنصـور] لم يخل من قصر يستجد أو مدينة يعمرهـا؛ زاد في مدينة مراكش في أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها».(7)

وإذا أمكن قبـول هذا التبريـر بالنسبـة «للمعجب» فـإن النص المتعلـق بوصف مراكش الموحدية الذي اقتطفه ابن فضل الله العمري عن ابن سعيد الغرناطـي من الجزء الخاص بالمغرب من كتـاب «المغرب في حلي المغرب»(8) يثير المزيد من التسـاؤل من جهة لاهتمام ابن سعيـد بالوصف الـدقيق لما تحدث عنه، ومن جهـة ثانية، لكون هذا النـص لحد الآن يعتبر شبه متفرد بمجموعة من المعلـومات المتعلقة بالمنشآت الخاصة بـالصالحة، إذ وصفها

---

4) ابن عبـد الملك المراكشي : الذيـل والتكملة. السفر الأول - القسـم الأول. تحقيق محمد بـن شريف بيروت ص 60.

5) البيان المغرب : 257- 258 / 438- 493.

6) الاستبصار : 210.

7) عبد الواحـد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغـرب. تحقيق : محمد سعيد العـريان ومحمد العربي العلمي - القاهرة 1949. ص : 292.

8) ورقات : 289.

وصفا دقيقا لكن دون ذكر لا للمارستان ولا للقيسارية، في وقت كان فيه المؤلف معاصرا لهذه المنشأة الأخيرة اعتبارا إلى أنه توفي سنة 673هـ والقيسارية لم تصب بالحريق الذي اختفت بسببه إلا سنة 664هـ. ولعله اعتبرها ضمن أسواق هذا المجال.

يتبين إذا أننا أمام مشكل ببليوغرافي في واضح، يتعلق بجانب مهم من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمراكش من أواخر القرن السادس الهجري إلى منتصف السابع الهجري.

الموقع :

تقع القيسارية في شمال شرق المدينة المخزنية - الصالحة - عند ملتقى هذه الأخيرة بالمدينة المرابطية من باب الصالحة.(9) وهو تحديد حاولنا استخراجه من خلال معلومات عرضية وردت عند كل من ابن عبد الملك، وابن فضل الله العمري. فبالنسبة للأول أشار إلى هذا الجانب أثناء ترجمته لمحمد بن إبراهيم العبدري المتوفى سنة 626 هـ كما يلي «القبة المنصورية إزاء الجامع الأعظم المنصوري بمراكش حرسها الله وهي القبة الكائنة بمقربة من الزاوية الملتقى عليها الخطان الشرقي والشمالي بانحراف يسير منهما مقابلة القيسارية هناك».(10)

أما بالنسبة لابن فضل الله العمري، فرغم عدم ذكره لاسم القيسارية بناء على نص ابن سعيد الغرناطي الذي اعتمده، فيفهم من السياق الموقع المحدد سابقا وذلك من خلال معرفة خط مجرى الساقية التي جلبها المنصور إلى مراكش الموحدية 585(11) يقول: «والنهر الذي جلبه المنصور يخترق قصوره ثم يمر على السقائف والرحاب... ثم يحدث بالجامع ثم يمر بالأسواق - قدر ميل - إلى أن يخرج على باب الصالحة».(12)

وان اختيار هذا الموقع ليبدو بعيدا عن الصدفة والارتجال على اعتبار الإمتيازات التي وفرها خاصة للنشاط التجاري ومنها :

---

9) Gaudefroy - Demombynes : Masâlik el abçar. Paris, 1927, carte de Marrakech - p : 181.

10) الذيل والتكملة سفر I رقم I : 60.

11) ابن أبي زرع : روض القرطاس. طبعة المنصور. الرباط.

12) ورقات : 304.

1 ـ القرب من وجود منفذين خارجيين لتسهيل التبادل مع خارج المدينة وهما باب الصالحة شرقا(13) وباب الشريعة غربا.(14)

2 ـ أهمية الإمكانيات الأمنية التي يتوفر عليها هذا الموضع، سواء منها المعمارية أو البشرية.

3 ـ الموقع وسط بين ثلاث تجمعات بشرية هامة بالمدينة هي : الصالحة، والمدينة الموحدية بالجنوب الغربي، ثم المدينة المرابطية خاصة الوسط والشرق منها. وهذا العنصر من شأنه أن يوفر طاقة للعمل والاستهلاك.

تاريخ التأسيس :

ورد في كتاب الاستبصار أن المنصور الموحدي أمر بعمارة هذه القيسارية «أول سنة 585هـ»(15) وهذا يفيد أن تاريخ البناء كان قبل هذه الفترة. ولعله يعود إلى سنة 580 هـ باعتباره تاريخ الشروع في بناء الصالحة(16) والقيسارية جزء من هذه الأخيرة التي يبدو أن انتهاء الأشغال بها كان بعد سنة 585هـ.(17) على أساس ذلك من غير المستبعد أن البناء استغرق وقتا ليس باليسير، وهو شيء مقبول إذا اعتبرنا أهمية المكونات المعمارية التي احتوت عليها القيسارية، حيث أكدت على ذلك تعليقات واضحة [«كتاب الاستبصار» و«البيان»] حول القيمة المعمارية لهذه المشأة جاء في الأول: «قيسارية عظيمة لم يبق في مدن الأرض أعظم منها»(18) وبعيدا عن عناصر المقارنة فإن ابن عذاري أكد على عنصر التكامل وجمالية العمران يقول: «كانت ـ القيسارية ـ كالمرآة في وجه القصر تضيء به من أكنافه وكالورد العذب والمادة لتأتي مؤنه وجميع لباناته».(19)

13) حول باب الصالحة انظر : Deverdun. op. cit pp. 125 - 126

14) حول باب الشريعة انظر : Deverdun. op. cit. pp. 123 - 124 / 203 - 204

15) الاستبصار : 210.

16) البيان : 174.

17) روض القرطاس : 262.

18) الاستبصار : 210.

19) البيان : 218.

يضاف إلى ذلك أهميـة المجال الذي امتدت عليـه، والذي يبدو كبيرا كما سنلاحظ فيما بعـد. كل هذه العناصر تسهم إذا في فهم أسبـاب التباعد بين تاريخ بداية البناء وتاريخ بداية الاستخدام.

ظـرفية التأسيس :

تدخـل قيساريـة مراكـش الموحديـة ضمـن المعمار الاقتصـادي الـذي أقامه الموحدون بالصالحـة، كالأسـواق والفنادق.(20) وإذا كان للعنصرين الديمغرافي والسيـاسي حضورهما القوي في فهم بعض الجوانب مـن ظرفية بناء المدينة المخزنية(21) فإن الجانب الثـاني مع الحوافز الاقتصاديـة تبدو كعناصر بارزة وراء تأسيس هذه المنشأة.

حقا، إن الارتفـاع الملحوظ الـذي عرفتـه ديمغرافيـة المدينة خـلال هذه الفترة من شـأنه أن يدفع إلى تـزايد الحاجيات ومتطلبـات الاستهلاك، وأن المجال الـواسع الذي امتـد إليه نفوذ الموحـدين من شـأنه أن يفتح فـرصا جديدة للتبادل مع العاصمة.

والملاحظتـان معـا مـن شـأنهما الـدفـع إلى تصـور حـدوث ضرورات تستوجب تـوسيع أسواق المدينة لمسـايرة المتطلبات الاستهلاكيـة للسكان، واحتواء مبادلات الخريطة التجارية الواسعة.(23) إلا أن وجود نـص صريح وواضـح لابـن عذاري في هذا الشأن لا يترك مجالا لتـأويل من هـذا النوع. فأثناء حـديثه عن توسيع المدينة أقـام ربطا عضويا أساسه عـدم مسايرة السكنـى لحاجيات السكـان، ونقـص في الأراضي المخصصـة للبناء. يقـول: «انجلى النـاس إلى مراكـش من كـل مكان... فضـاقت بـالناس فلـم يجدوا مـوضعـا للبناء ولا محلا للسكنـى وكـان الأمير أبـو يعقوب أمـر القبـائل هسكورة وصنهـاجة أن يرتحـلوا من بلادهم إلى سكنـاها بأهلهـم وبنيهم

---

20) الاستبصار : 210.

21) البيان : 174.

22) Vanacker Claudette : Géographie économique de l'Afrique du Nord. Annales. E.S.C. Mai-Juin - 1973. Carte N° 3 et voir aussi Histoire du Maroc. (Faculté des Lettres - Rabat). Paris, Hatier 1967. pp. 122 - 123.

23) البيان : 153.

فامتثلوا ذلك ووصلوا ولم يجدوا حيث ينزلوا فشكوا ضيقتهم وحيرتهم».(23) ويبدو في النص عدم إدخال المعمار الاقتصادي بما فيه الأسواق والفنادق في الاعتبار، ونحن هنا أمام مؤرخ يعرف حقائق صناعته، ليس من السهولة عليه إغفال هذا الجانب لو كان فعلا.

ومن غير المستبعد أن المسألة لها علاقة بالرغبة في تحويل نشاط اقتصادي مهم بالمدينة من مكان إلى آخر، أو على الأقل نزع بعض الأنشطة منه بشكل يجعل الثاني المركز لذلك النشاط بهذا المجال. أن هذه الإمكانية يمكن الوصول إليها من خلال الحيثيات التالية:

1 ـ إن أسواق وفنادق المدينة المرابطية على الأقل إلى حدود سنة 580هـ، كانت تعرف رواجا كبيرا (24) لا يمكن في غيابها فهم الهجرة الكثيفة والواسعة إلى المدينة. ففي سنة 563هـ وهو تاريخ يبعد عن بداية نشاط القيسارية بحوالي 22 سنة، وبعد تجديد بيعة المنصور، يلاحظ أن المدينة المرابطية كانت تعرف رواجا تجاريا كثيفا يقول عنه ابن صاحب الصلاة: «وزادت المخازن إثر ذلك وفورا، ونمت الأرزاق، وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة ودرت على الناس الخيرات درورا... وكثر المال في الأيدي من توالي سمحه وبركته، وابتنوا بمراكش الديار العتيقة، واغترسوا خارجها أينع حديقة».(25) وفي سنة 579هـ يلاحظ استمرار وتواصل نمو هذا النشاط الاقتصادي بشكل متصاعد يقول ابن عذاري «... فصارت ـ مراكش ـ أوسع البلاد معاشا وأكثرها خلقا وأربحها تجارة».(26) وفي سنة 580هـ يبرز نص آخر لابن عذاري أيضا الأهمية التجارية لهذه الأسواق والفنادق وذلك من خلال نوعية بعض البضائع التي كانت تتوفر عليها وقيمها والمدخر منها، يقول: «ثم أمر ـ المنصور ـ بقطع لباب الغالي من الحرير، والاجتراء منه. بالرسم الرقيق الصغير... وأمر بإخراج ما كان في

---

24) البيان : 153.

25) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة. تحقيق عبد الهادي التازي بيروت. 1964. ص : 347.

26) البيان : 153.

المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصى - بأثمان لم توف ولم تستقص..».(27)

كل هذا يفيد دون شك أن الأسواق والفنادق المرابطية كانت تعرف رواجا تجاريا كثيفا ومتواصلا وفي هذا ما يدل على أنها كانت مسايرة لمستوى وطبيعة متطلبات نشاط تجاري من هذا الحجم، وهي وضعية من شأنها أن تشجع الموحدين على تقوية حماية هذا النشاط وتطويره. وهو اهتمام يبدو انعكاسه في إنشاء سلسلة وحدات تجارية جديدة بالمجال من أسواق وفنادق ثم القيسارية. وهنا نتساءل : ألم يكن في الإمكان بناء هذه الأخيرة بالقرب من المرافق التجارية للمدينة المرابطية؟ وذلك في إطار الحفاظ على تكامل وتقارب هذه المنشآت الاقتصادية وهو شيء لم يكن ليغيب عن مخزن كانت له من الخبرة المعمارية، والكفاءات المختصة في هذا الجانب ما تشهد به أكثر من حالة.(28)

2 - يلاحظ أن الموحدين قد عملوا ومنذ وصولهم إلى الحكم واستقرارهم بمراكش على محو أثر المرابطين بالمدينة.(29) وذلك بناء على خطة غير مستبدعة تقوم على تهديم المنشآت وإنجاز مشاريع معمارية في مختلف الميادين التي اهتم بها المرابطون والأكثر التصاقا بالحياة اليومية للسكان، على أساس أن يكون المشروع الموحدي ذا امتياز أمامها رغبة في أن يصبح بديلا عنها، يتضح ذلك من النمادج التالية:

- تقنية هندسة المياه : استخدم المرابطون كما هو معلوم الخطارات كتقنية(30) مكنت من توفير الماء الضروري للمدينة وباديتها. بالمقابل ركز الموحدون على وسائل أكثر تطور وتنوعا مثل إقامة السواقي الكبيرة(31)

27 ـ 28) البيان : 174.

29) الوزان : وصف إفريقيا. جزء I ترجمة : محمد حجي، محمد الأخضر الرباط 1980. ص 100 ـ 101.

30) الإدريسي : نزهة المشتاق طبعة الجزائر 1957 ص 43 ـ 44.

31) ورقات : 304 ـ روض القرطاس 218.

والصهاريج(32) والآبار، وخزانات مياه الأمطار(33) إضافة إلى الرفع من عدد السقايات بالمدينة.(34)

- **المعمار الديني** : ويتجلى في تهديم جانب من جامع ابن يوسف(35) وتخريب مساجد المدينة بدعوى التطهير وتصحيح موقع القبلة(36) وإقامة مساجد أخرى على رأسها جامع الكتبيين(37) الذي حاول عبد المومن أن يجعله فريدا في هذا المجال الجغرافي ينعكس ذلك مثلا في المقصورة المتحركة والتي تتسع لأكثر من ألف رجل.(38)

- **المعمار المخزني** : يتضح في إهمال قصر الحجر، والانتقال إلى الصالحة التي جعلها الموحدون وحدة معمارية خاصة بالمخزن ذات طراز رفيع أثارت إعجاب المتحدثين عنها.(39)

- **الأبواب** : هناك بعض الأبواب التي تم تهديمها كليا وأعيد بناؤها من جديد مثل باب الشريعة(40) وهناك أبواب مرابطية أطلقت عليها أسماء جديدة مع الموحدين، مثل باب أغمات الذي أطلق عليه اسم باب الفتح.(41)

على أساس هذه العناصر إذا يبدو ما يشجع على أن التحويل والتمايز على أساس الأفضلية لمنجزات الموحدين، كانا حاضرين في تنظيم الموحدين لمراكش، وهو توجيه انعكس على أكثر من نشاط في المدينة. فعلى المستوى الديني مثلا يلاحظ تعطيل لنشاط مؤسسة دينية هامة، وهي جامع ابن

32) الاستبصار 210 - التشوف 456 - ورقات 304.
33) وصف إفريقيا : I 101.
34) نزهة المشتاق : 44.
35) البيدق : أخبار المهدي بن تومرت طبعة دار المنصور الرباط. 1971. ص : 66.
36) البيدق : 66.
37) الاستبصار : 209.
38) مجهول الحلل الموشية. تحقيق : سهيل زكار، عبد القادر زمامة البيضاء 1979. ص : 144 - 145.
39) البيان : 174.
40) البيان : 154.
41) البيان : 358، 459.

يوسف(42) مقابل الترغيب في تعمير جامع الكتبيين،(43) وعلى المستوى الاقتصادي، يلاحظ - كنماذج - نقل لعدة أنشطة حرفية وتجارية إلى الجنوب والجنوب الغربي حيث المعمار الموحدي. وهكذا نجد : السراجين(44) القراقين،(45) تجارة السكر(46)... الخ.(47)

في هذا الإطار يمكن من بعض الوجوه فهم جانب من دواعي تأسيس هذه القيسارية كعنصر جديد في هيكل المعمار التجاري بالمدينةمن شأنه تدعيم القواعد التي ارتكزت عليها تجارة مراكش آنذاك واعتبارا إلى رعاية المخزن لها،(48) فإنها استفادت - دون شك - من توفر أكثر من سبب لتشجيع وإنعاش الرواج بها. وهي وضعية تجعلها في موقع المنافس القوي للأسواق المرابطية، ولذلك فإن هذه الوحدة إذا كانت دعما لتجارة المدينة، فلا يستبعد توجيهها للمساهمة في شل المرافق الاقتصادية المرابطية، وصولا إلى محو آثار المخزن السابق.

المكونات :

لا تمكن المصادر المتداولة من تحديد مكونات هذه القيسارية، باستثناء «البيان» الذي أكد على وجود الأسواق بها(49) دون تحديد لعددها واختصاصاتها، ويمكن القول على أساس المقارنة مع قيسارية فاس المرينية بما أن هذه الأخيرة بلغ عدد أسواقها خمسة عشر سوقا،(50) فمن غير المستبعد أن قيسارية مراكش كانت تضم شبكة أسواق تزيد على هذا الرقم وهو ما يسهم في فهم إشارة العمري إلى وجود الأسواق بالصالحة دون تمييز للقيسارية ضمنها.

42) نزهة المشتاق : 44.

43) الحلل : 144 - 145.

44) البيان : 358.

45) البيان : 315ك 358.

46) البيان : 326.

47) الاستبصار : 210.

48) الاستبصار : 210.

49) البيان : 258.

50) وصف إفريقيا : 189 - 190.

ويبدو أيضا أن هذه القيسارية كانت تغطي مساحة كبيرة، وهو ما يستتشم من الملاحظات التالية:

1 ـ حدد العمري أثناء وصفه للصالحة(51) خط مجرى ساقية أدخلها المنصور سنة 585 هـ(52) كما يلي: «والنهر الذي جلبه المنصور يخترق قصوره ثم يمر على السقائف والرحاب.. ثم يحدق بالجامع ثم يمر بالأسواق ـ قدر ميل ـ إلى أن يخرج على باب الصالحة».

يتبين من هذا النص أن طول مجال الأسواق من خلال طول الساقية المجاورة لها يقدر حوالي: 1.100م(53) وإذا اعتبرنا الأهمية المتزايدة التي كانت للقيسارية ضمن هذا المجمع التجاري، فيستفاد من ذلك إمكانية تغطيتها لمساحة كبيرة.

2 ـ اعتبارا إلى فداحة الخسائر التي ترتبت عن إحراق القيسارية سنة 607هـ من جهة، وإلى كثافة المتعاملين بها من التجار» الواردين والقاطنين والقاصين والدانين».(54)

من جهة ثانية، فإن هذا يعكس أهمية الرواج وكثافته وهو ما يتطلب هيكلا معماريا كبيرا بمرافقه الضرورية من مخازن ودكاكين التعاقد وغيرها وكل ذلك كان يتطلب وجود مساحة كبيرة لهذه المنشأة.

وقد خضعت قيسارية مراكش فيما يبدو لإشراف مجموعة من أمناء الأسواق(55) حسب الاختصاص. وكان البيع بالمزايدة معمولا به بواسطة الدلال(56) إلى جانب توثيق عمليات البيع والشراء، وهو ما يفهم أيضا من تعدد ممتهني خطة عقد الشروط بالمدينة آنذاك،(57) ونتساءل بعد هذا هل كان للقيسارية نظام خاص بها؟

---

51) ورقات : 304.

52) روض القرطاس : 218.

53) Demombynes : op : cit. p: 186 - citation N° 1

54) البيان : 258.

55) المعجب : 285.

56) التشوف : 393.

57) ابن عبد الملك : الذيل، سفر 8 قسم I، تحقيق محمد بن شريفة الرباط 1984 ـ ص : 13ـ 179ـ 261ـ 263ـ 333.

دون شك فـإن الوحدة الاقتصـادية استفـادت من الإجراءات والتقـاليد التي مارسهـا الموحدون خلال هذه الفترة في العمل التجـاري بالخصوص، من نظام الحسبة(58) وما يرتبط به مـن أمناء الأسواق، إضافة إلى الإشراف المباشر للخليفـة على البت في بعـض المشاكل التـي تهم التجار أيضـا، أثناء جلوسه للأحكام،(59) ثم الاهتمام المتـزايد الذي كان الخلفـاء يولونـه إليها سواء في تنميتهـا كما يلاحـظ في مبادرة المنصور بجلـب التجار إليهـا سنة 595هـ،(60)أو في الإشراف على معالجة مشاكلها كما حـدث مع الناصر أثناء احتراقها سنة 607هـ.(61)

هذا الاهتمام المخزني ومـا وفره من ضمانات أمنية هامـة لهذه الوحدة دفع التجار فيما يبدو إلى إيداع وتخزين أموالهم فيها. وهو تقليد تحول إلى وظيفة خاصة في فترات الأزمات.(62)

المـوقـع الاقتصـادي :

مما لا شك فيه، أن قيساريـة مراكش الموحدية كانت قـد احتلت موقعا متميزا في حركة التجارة بالمدينة، وهي مـلاحظة يمكن التقرب إليا أكثر من خلال النقط التالية:

1 ـ موقعها الجغرافي ضمن المدينة المخزنية الذي يجعلها في وضع يوفر لها مختلف شروط رواج تجاري كثيـف، وهو ما ينعكس بجـلاء في وصف كل من «الاستبصـار» و«البيان»...

2 ـ الـــربـط العضـوي الذي جمـــع فيه ابـن عذاري بين أهميـة هذه القيسارية ومتطلبات المدينة، وذلك أثناء تعليقه على الحريق الذي نشب فيها سنة 607هـ بقـولـــه: «فما طلع الصبـاح وبقي مـن أمتعة مـراكش ذبالة مصباح»،(63) وأهميـة هذا التعليـق تبرز أكثر إذا علمنـا بأن المدينـة كانـت

58) ابن عبد الملك : الذيل. سفر 8. قسم II، تحقيق : محمد بن شريفة الرباط 1984. ص : 404.
59) البيان : 173 ـ 174.
60) الاستبصار : 210.
61) البيان : 258.
62) البيان : 437 ـ 438.
63) البيان : 258.

تتوفر على مجموعة أسواق وفنادق قديمة مرابطية وجديدة موحدية تمارس هي الأخرى أعمال التجارة.(64)

3 ـ فداحة الخسائر الاقتصادية الناجمة عن الحريق «وذهب في هذه الكائنة للتجار... من الأموال الجسيمة مالا يحصى».(65)

4 ـ أهمية المضاعفات الاجتماعية «وافتقر فيها أمة من ذوي اليسار وأصبحوا يتكففون الناس حيارى على الأقطار...(66)

5 ـ مساهمتها فيما يبدو في تكوين تراكم للثروة والأموال لدى عدد من أهل المدينة، وهو ما ينعكس في مضامين النصوص التي احتوت على ما يعبر عن ذلك مثل : التجار(67) وأكابر التجار(68) والأغنياء(69) وأوفر أهل الحضرة مالا.(70)

ورغم الحريق المهول الذي أصابها سنة 607هـ فقد أعيد بناؤها بأمر من الناصر الموحدي،(71) ومن غير المستبعد أنها استرجعت نشاطها بعد ذلك وهو مما جعلها نقطة مستهدفة سنة 664 هـ من طرف هسكورة الذين «دخلوا القيسارية ونهبوها أي انتهاب واستولوا على جميع ما كان فيها من الأمتعة والأسباب، وأشعلوا النار فيها وحرقوها»(72) وبذلك تكون نهاية هذا الإنجاز التجاري الهام بمراكش الموحدية.

وأخيرا من الممكن القول أن هذه الوحدة تعتبر بداية لشكل معماري اقتصادي جديد بالحوز، وأداة متقدمة في هياكل النشاط التجاري بالمدينة، نشأت في إطار جغرافي عرف تراكما غير عادي لتقاليد وأعراف تجارة ذات حجم كبير.

---

64) الاستبصار : 210 البيان : 153 ـ 154.
65) البيان : 258.
66) البيان : 258.
67) التشوف : 317.
68) العباس إبراهيم التعارجي : الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، الجزء I طبعة فاس 1936 ـ ص : 303.
69) التشوف : 477.
70) الذيل والتكملة : السفر الثامن، جزء I، ص : 14.
71) البيان : 218.
72) البيان : 439.